

الإعلام الألماني والقضية الفلسطينية

محمد خلوق



ما زال الإرث النازي لألمانيا يؤثر على العلاقات الألمانية - الإسرائيلية وعلى الرأي العام الداخلي اتجاه إسرائيل. يتجلى ذلك بوضوح في السياسة التحريرية لأغلب وسائل الإعلام الألمانية المسموع منها والمرئي والمكتوب. إن عقدة الذنب التي تستحکم بالذاكرة الجمعية للمجتمع الألماني من جهة والتأثير الذي تحظى به الأقلية اليهودية في شتى المجالات داخل المجتمع الألماني من جهة ثانية، يسهم إلى حد كبير في تزييف الصورة التي ينقلها الإعلام الألماني عن الصراع في الشرق الأوسط. وفي هذا السياق أشارت الصحفية بيتينا ماركس التي تعمل مراسلة لقناة ARD في تل أبيب في محاضرة لها بعنوان "مع إسرائيل أو ضد إسرائيل" إلى أنه يتم النظر إلى تقارير المراسلين الأجانب حول إسرائيل وخصوصاً من الجهات الرسمية على أنها معادية للدولة العبرية، التي تتهمهم بالانحياز للفلسطينيين وعدم تفهم الوضع الإسرائيلي، وتزداد الضغوط الإسرائيلية خصوصاً إذا تعلق الأمر بمراسلين ألمان، فقد نعت داني سيمن المسؤول الإعلامي داخل الحكومة الإسرائيلية مراسل جريدة فرانكفورتا ألغماينه يورغ بريمر بأفدع الصفات ورفضت السلطات الإسرائيلية تمديد إقامته، رغم أنه يعمل مراسلاً لصالح جريدة متعاطفة مع إسرائيل. وتستطرد بيتينا ماركس قائلة بأنه حتى لو كان الماضي النازي لا يؤثر في عملها اليومي بشكل مباشر إلا أنها كألمانية لا تستطيع أن تنأى بفكرها عن هذا الماضي. فالصحفي الألماني مطالب أكثر من غيره بتوخي الحذر وخصوصاً فيما

يتعلق الأمر بتعامله مع الناجين من الهولوكست وبالصراع في الشرق الأوسط . وتتابع قائلة: "إذا ما كتبت تعليقا أو أحدا من زملائي حول السياسة الإسرائيلية نتعرض نحن والمؤسسة التي نعمل فيها لموجة من الاحتجاجات والشتم". لكن في مقابل هذا الرأي النقدي لبيتينا ماركس وهو رأي الأقلية داخل المنظومة الإعلامية الألمانية فإن الرأي الغالب هو المساند والمتعصب لإسرائيل وهو الذي يعبر عنه مراسل قناة NTV في الشرق الأوسط أولريش فيزام قائلا بأن اليهود استقوا العبرة من المحرقة وهم لن يسمحوا لأنفسهم بأن يكونوا ضحية مرة أخرى للقانون الدولي، لأن هذا القانون الدولي لا يملك صلاحية بالنسبة لإسرائيل ولا يعد ملزما لها. وقد درجت وسائل الإعلام الألمانية على توفير حيز كبير للإسرائيليين والمتضامنين مع إسرائيل في برامجها، في وقت يغيب فيه الصوت العربي والمسلم أو حتى الصوت النقدي من داخل المجتمع الألماني. فمجلة فوكوس الأسبوعية أو يومية زود دويتشه تفسح المجال لرئيس المجلس الأعلى لليهود غراومان ليصف حماس بأنها ليست أكثر من ذراع إرهابية لإيران مطالبا الحكومة الألمانية بقطع العلاقات الدبلوماسية مع طهران في حين لا يحظى المسلمون بأي فرصة للتعبير فيها عن موقفهم ورؤيتهم لواقع الصراع. أما جريدة دي فيلت المعادية للإسلام والمسلمين فإنها تحاول اقناع الرأي العام الألماني بأن حماس تبالغ في تقدير عدد الضحايا الفلسطينيين وتتوسل في ذلك بنشر عناوين مضللة. وتجرد وسائل الإعلام الألمانية الفلسطيني من كل صفة إنسانية وتعمل على شيطنته في حين تتعافل عن تطرف السياسة الإسرائيلية وتراجعها عن المبادئ الديمقراطية. وترى أورزولا غوتس من وكالة الأنباء الألمانية DPA بأنه حتى المراسلون المكلفون بتغطية الأحداث في الشرق الأوسط، يصعب عليهم فهم كل الفاعلين في المنطقة، لأنهم يتبنون في الواقع الموقف الإسرائيلي، فلا أحد من هؤلاء المراسلين يعيش داخل المناطق الفلسطينية، في حين يمكنهم التحاور في يسر مع الإسرائيليين لأن أغلبهم يتقن اللغة الإنجليزية وهو أمر لا يتوفر إلا نادرا لدى الجهة الفلسطينية. في دراسة أنجزتها جامعة بار آيان الإسرائيلية ونشرتها صحيفة هآرتز، أفادت أن 91 في المائة من المراسلين يرون إسرائيل بصورة حسنة، بينما في المقابل 41 في المائة منهم يرون الدول العربية بالصورة الحسنة نفسها، وفي الدراسة ذاتها تبين أن 57 في المائة لديهم معلومات جيدة عن الديانة اليهودية وفي المقابل 10 في المائة فقط ممن طبقت عليهم الدراسة أجابوا بفهمهم الجيد للدين الإسلامي، أما عن عامل اللغة فإن 54 في المائة من المراسلين يتقنون اللغة العبرية بطلاقة، أما عن اللغة العربية فهناك 6 في المائة فقط من المراسلين يتقنونها بطلاقة. ويتوجب هنا تحميل المسؤولية عن هذا الوضع المختل للدول العربية خصوصا التي لا تبذل أدنى جهد في التواصل مع هؤلاء الإعلاميين الغربيين ولا في التعريف بعدالة الموقف العربي وشرعية المقاومة. أما نورمن بيش من مؤسسة دراسات السلام فيرى أن وسائل الإعلام الألمانية في معرض تعليقها على الأحداث في فلسطين تكتفي بالرواية الرسمية الإسرائيلية ولا تكثر حتى للتقارير الأممية. وتؤكد هذه التصريحات عدم قدرة الإعلام الألماني على اتخاذ موقف محايد اتجاه مجريات الأحداث في الشرق الأوسط وأنه لا يتمتع باستقلالية حقيقية وإنما يخضع لأجندات داخلية وخارجية، على الأقل فيما يخص القضايا العربية - الإسلامية. يؤكد كاي حافظ، أحد المتخصصين في الدراسات الإعلامية في ألمانيا، بأن هذا الانحياز إلى الرواية الإسرائيلية راجع بالأساس إلى تبني وسائل الإعلام الألمانية للموقف الرسمي الأمريكي وتأثرها بما ينشر في الولايات المتحدة الأمريكية. بل إن مؤسسة سبرينغر التي تصدر كبريات الصحف والمجلات الألمانية كيبيلد تسايونغ ودي فيلت تعتبر أنه على الدولة الألمانية تبني الموقف الإسرائيلي وعدم الاكتراث بردة الفعل العربية. ويرجع لها الفضل في إقرار ألمانيا بإسرائيل سنة 1965. كما إن هذه المؤسسة تفرض على كل العاملين لديها تبني الموقف الإسرائيلي فيما يتعلق بالصراع في الشرق الأوسط. فمؤسس هذه المؤسسة أكسل سبرينغر يدعو وسائل الإعلام التابعة لمؤسسته إلى تصوير كل من يتحفظ على سياسة إسرائيل أو يساوي بين مصالح الدولة اليهودية والمعسكر العربي كمتطرف يميني. إنه يرى أن كل نقد موجه للسياسة الإسرائيلية يصب في مصلحة معاداة السامية واليمين المتطرف. علاوة على ذلك فإن وسائل الإعلام ذات التوجه اليساري والتي قامت كردة فعل على احتكار

مؤسسة سبرينغر للمجال الإعلامي في الساحة الألمانية، كجريدة طاغس تسايونغ أو مجلة كونكريت السياسية الشهرية، تتبنى هي الأخرى إجمالاً الموقف الإسرائيلي. ويحاول الإعلام الألماني خصوصاً والغربي عموماً الربط دائماً بين الحركات الإسلامية والحركات النازية والفاشية أو الشيوعية التي عرفها القرن العشرين، واعتبار الحركة الإسلامية والمقاومة منها على وجه التحديد، حركة توتاليتارية، تحثي بالموت وتقديس الإرهاب، فهذا انسنسبرغر نجم الثقافة الألمانية المعاصرة يصف المقاوم الفلسطيني بالخاسر الراديكالي الذي يهدف إلى التدمير الذاتي وتدمير الآخرين معه، وهو يعتبر الخاسر الراديكالي شخصاً لا يؤمن بالحلول الوسطى ولا بالمفاوضات، بل هدفه هو الانتحار الجماعي وهكذا يتم إعلاء مغالطات تاريخية إلى مستوى النظرية، فحين نسقط خصائص حركات ظهرت في سياق عربي، تاريخي وثقافي وسياسي مختلف، كان هدفها السيطرة على السلطة، على حركات مقاومة لا تطلب شيئاً غير التحرر من الاحتلال، فإننا نؤسس لما كان يسميه الفيلسوف النقدي ثيودور أدورنو بصناعة الوعي. وهو يعني بذلك سياسة وسائل الإعلام في المجتمعات الغربية خصوصاً التي ما برحت تمارس وصاية على هذه المجتمعات وترسم طريقة تفكيرها وتحدد مواقفها بشكل مسبق. إن الإعلام الغربي لا يوظف إلا المثقفين الذين يخدمون الأجندة السياسية الحاكمة، في حين يتم تغييب أصوات المثقفين النقديين الذين يفضحون العالمية الغربية الخاطئة والتي تحتكر لنفسها شرعية استعمال العنف وهي ليست في النهاية سوى تعبير عن قومية أو مصالح ضيقة. فنادرًا ما يظهر على شاشات التلفزيون في الغرب مثقفون مثل جاك دريدا الذي كتب معلقاً على عمليات الحادي عشر من سبتمبر: "وإذا كان تعاطفي مع كل الضحايا هو بلا حدود، فذلك لأنه لا يتوقف فقط عند أولئك الذين قضاوا نحبهم في 11 من سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية. إن هذا هو تأويلي لما نسماه منذ أمس، حسب تعبير للبيت الأبيض، عدالة لا نهائية: أن لا يتبرأ المرء من أخطائه وأخطاء سياساته حتى في اللحظة التي يتوجب عليه أن يدفع ثمناً رهيباً يتجاوز كل المقاييس". إن الإعلام الغربي هو جزء من سردية متكاملة، تقوم على فكرة مركزية الغرب وأحقية قيادته العالم، لكنها قيادة تحتكر الديمقراطية لنفسها، وتتعامل وفق مبادئ لا علاقة لها بالمبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان الكونية مع الشعوب الأخرى، بل إن مثقفاً كبيراً مثل بيير بورديو ما برح يؤكد بأن "عقلانية" المركز هي المنتجة والمسؤولة عن "لاعقلانيات" الأطراف.